الفصل الثاني

المغامرة الكبرى

لم يمض وقت طويل قبل أن تتحول أفكار الشاب عبدالعزيز من حياة الغرام واللهو إلى حياة ملئها الجد والعزم. وثمة إشارة هنا وهي أن محمد بن رشيد الذي اعتلى عرش حائل عام ١٨٧٢م وبسط سلطانه على صحراء الجزيرة العربية لعقدين من الزمان توفاه الله عام ١٨٩٧م. وكان خليفته وابن أخيه عبدالعزيز بن متعب محارباً شجاعاً غير أنه لم يكن سياسياً وإدارياً متميزاً، وأفقده ذلك مساحات شاسعة من الإمارة كانت تحت نفوذ سلفه مما أدى إلى انهيار نفوذ عائلة آل الرشيد.

وكان المنافس الرئيس لعبدالعزيز هو الشيخ مبارك بن صباح حاكم الكويت الذي كان يغازل بريطانيا آنذاك ضد تركيا التي كانت تطمع في تحويل سلطتها الاسمية على إمارته إلى سلطة حقيقية. أما القوة السياسية الثالثة في الجزيرة العربية فهو سعدون باشا زعيم قبائل "المنتفق" على حدود ولاية البصرة والتي كانت في نزاعات مستمرة مع السلطة التركية في بلاد الرافدين.

وكان محمد بن رشيد قبل وفاته قد نصح خليفته بأن لا تغريه السلطة التركية ويدخل في أعمال عدائية مع الكويت حيث إنه لن يكسب شيئاً بل سيثير حفيظة الحكومة البريطانية التي كانت قد قدمت التزامات للشيخ مبارك الصباح بالدفاع عن إمارته عند الحاجة.

بيد أن عبدالعزيز بن رشيد لم يكترث لهذه النصيحة وجهز حملة عسكرية مفككة الأوصال لمناوشة الكويت والقبائل التي تقطن داخل العراق مجبراً بذلك كلاً من مبارك وسعدون العراقي بالاتحاد ضده بمباركة من الحكومة التركية. علاوة على ذلك فقد قام مبارك الصباح بتأليب ضيوفه أمراء آل سعود تحت قيادة الإمام عبدالرحمن بن فيصل. وثمة مساعدة ولكنها صغيرة الحجم للقوة العسكرية لآل سعود التي وقفت بجانب مبارك الصباح وسعدون العراقي ضد تهديدات عبدالعزيز بن رشيد.

وفي العام ١٨٩٢م وبعد تردد طويل، أجبر البريطانيون على إعادة النظر في موقفهم تجاه الكويت بسبب نشاطات تركيا ومقترحها بإنشاء خط سكة حديد يصل إلى رأس الخليج الفارسي. وثمة اتفاقية لأصحاب القوى السياسية في الخليج مع البحرين ومسقط أعطت بريطانيا ضمانات أمنية ضد أي محاولة للتدخل في الكويت تحول دون اقتطاع أي جزء منها بقوى أجنبية غير مرغوب فيها.

وكان التدخل التركي متأخراً في شؤون الخليج حيث لم يستطع الأتراك أكثر من تشجيع أصدقائهم في الصحراء العربية ضد مبارك الصباح، كما وأنها أصبحت مقتنعة بأن بريطانيا لن تكون أكثر حرصاً من تركيا على التدخل المباشر النشط في شؤون الجزيرة العربية.

وفي ظل هذه الظروف تحالفت العديد من المجموعات السياسية والقبلية ضد آل الرشيد، فهناك سعدون باشا على الجانب الأيسر لإمارة ابن رشيد، وعبدالرحمن بن سعود الذي عبر الصحراء الشرقية لمهاجمة الجانب الأيمن

لقوات آل رشيد، وتوالت هذه الأحداث في مطلع خريف عام ١٩٠٠م حيث تحرك الحلفاء الذين بلغ تعدادهم عشرة آلاف رجل من الكويت ترافقهم مجموعة من قبائل مطير والعجمان وبني مُرّة التي تم تجنيدها وقد نزلت في شعيب الشوكي على الطرف الغربي لصحراء الدهناء. وأوكلت قيادة معظم الجيش الذي خرج لملاقاة ابن رشيد إلى مبارك الصباح في حين أن عبدالعزيز قاد كتيبة عسكرية لصد ابن رشيد عن الرياض. ونجم عن هذه العمليات الحربية لعبدالعزيز قطع الإمدادات عن ابن رشيد ومنع وصول أي مساعدات عسكرية له من العاصمة الرياض. ولم يمض وقت طويل حتى حلول فبراير ١٩٠٠م حين بدأت المناوشات العسكرية بين الجيوش المتنافسة عند جبال الصريف والطرفية الرملية إلى الشمال من بريدة. وانتهت معركة الصريف كما تسمى في حوليات تاريخ الصحراء بهزيمة ساحقة لقوات الحلفاء الذين ولوا الأدبار نحو الكويت مثخنين بخسائر فادحة.

وعند سماع هذه الأخبار السيئة رفع عبدالعزيز الحصار عن مدينة الرياض وتقهقر باتجاه الساحل الشرقي. وفي أثناء ذلك، قاد ابن رشيد جيشه الظافر باتجاه الشمال حيث قام بإنزال أقسى العقاب على كل من ساعد أو رحب بأعدائه، ومن ثم قام بالاتجاه شرقاً حيث هاجم قرية الجهراء الساحلية بالقرب من الكويت. ولكن يبدو أن السكان هناك والذين عانوا من قسوة السلطة البريطانية اقتصروا في ترحيبهم لابن رشيد على الجانب المعنوي. وبعد ذلك قفل ابن رشيد راجعاً إلى معسكره في حفر الباطن مؤملاً أن يقدم له الأتراك دعماً مادياً لاستمرار حملته العسكرية. ولكن حدث أن الحكومة التركية التي كانت منشغلة بمحادثات مع برلين حول

خط سكة حديد بغداد والخليج الفارسي لم تأبه لابن رشيد حتى لا تثير حفيظة بريطانيا للتدخل الفعلي ولم تعطه سوى الدعم المعنوي الذي لا يسمح بأكثر من جعل الموقف السياسي في الخليج غائماً.

ومن جهة أخرى، فإن مبارك الصباح الذي تألم من تراجعه العسكري امتنع أيضاً من القيام بمغامرات عسكرية في الصحراء خوفاً من إثارة المشاكل مع الأتراك. ويبدو أن شتاء الموسم ١٩٠١/١٩٠٢م قد يمر دونما حوادث عسكرية، غير أن أفكاراً أخرى كانت تدور في مخيلة عبدالعزيز الذي أخذ موافقة الشيخ مبارك الصباح للسياحة في الصحراء درءاً لأي أعمال عدائية قد تطفو إلى السطح. ولم يتوقع كل من عبدالرحمن بن سعود ومبارك الصباح أي نتائج إيجابية لحملة عبدالعزيز وحذراه من مغبة الدخول في مثل هذه النزاعات التي لا طائل من ورائها. ولكن حدث أن خرج عبدالعزيز من الكويت بأربعين من رجاله متجهاً جنوباً عبر الصحراء صوب إقليم الأحساء الذي يقع تحت نفوذ الأتراك. وكان عبدالعزيز يجمع العرب البدو في طريقه ويضمهم لجيشه. وفي فجر السنة الجديدة نزل عبدالعزيز بجنده في واحة تسمى حرض التي أصبحت بعد خمسين عاماً أحد أهم آبار البترول في العالم. ويبدو أن بلوغ الحلفاء هذه المنطقة لم يكن ذا بال إذ لم يأت بنتائج مثمرة، وهرب معظم العرب البدو الذين تم تجنيدهم قافلين إلى مخيماتهم لقضاء شهر رمضان وأخذ قسط من الراحة.

وبنهاية هذا الشهر (فبراير) قاد عبدالعزيز مجموعة من جنده بلغت ٢٠٠ من رجاله الأشداء باتجاه الشرق صوب آبار أبو جفان للاحتفال بعيد

الفطر المبارك. وفي أمسية ذلك اليوم توجهت هذه القوة العسكرية نحو الرياض. وفي اليوم التالي أمضى الجميع الوقت في أودية هضبة الجبيل. وانقطعت حركة السابلة وأصبح من غير المرجح أن يكتشف أحد تحركات عبدالعزيز لاسيما وأن الجميع كان يستعد للاحتفال بعيد الفطر مع أسرته وأهله. وعندما أسدل الليل أستاره توجه عبدالعزيز على رأس أربعين رجلاً من قوته الضاربة، وترك بقية الكتيبة خلفه بعتادها الحربي على أن ترجع على جناح السرعة للكويت في حالة عدم سماع أخبار عن القوة المهاجمة عند ظهر اليوم التالي. وتقدم عبدالعزيز في جنح الليل صوب الرياض حيث أوكل لشقيقه محمد قيادة الفيلق الأكبر من رجاله الذين عسكروا تحت أشجار نخيل منطقة العود على الطرف الشرقي للرياض استعداداً للهجوم عليها بينما تقدم هو (عبدالعزيز) وخمسة عشر من رجاله باتجاه السور الشمالي المحيط بالمدينة لاسيما وأنه كان ضعيفاً يسهل اجتيازه.

وبينما كان سكان الرياض يغطون في نوم عميق تقدم رجال عبدالعزيز نحو قلعة المصمك التي كان يقطنها عجلان حاكم الرياض من قبل آل الرشيد وكان معروفاً بأنه يمضي أمسياته في هذه القلعة في أوقات الشدة، وكانت منازل عجلان الخاصة قبالة البوابة الرئيسة للقلعة والتي كانت هدفاً لقوة عبدالعزيز المهاجمة التي ما تزال بعيدة عن الأنظار. وحدث أن فتحت امرأة باب القلعة للطارق وفجأة اندفع المهاجمون نحو الداخل واعتقلوا الخدم والنساء ووضعوهم في غرفة واحدة تحت حراسة مشددة. ومن النافذة العليا استمر عبدالعزيز ورجاله في مراقبة بوابة القلعة، حيث كانوا يحتسون القهوة ويتلون القرآن الكريم حتى مطلع الفجر وهو الوقت الذي اعتاد فيه حاكم الرياض مغادرة القلعة متجهاً صوب

منزله. وعندما فتح باب القلعة اندفع عبدالعزيز ورجاله نحو الداخل ودار قتال عنيف نجم عنه اغتيال حاكم الرياض والعديد من حرسه الخاص بينما قتل بقية جنود عجلان بواسطة مجموعة عسكرية يقودها عبدالله بن جلوي عند محاولتهم قفل القلعة. وبعد قتال لم يدم سوى بضع دقائق أصبح عبدالعزيز أمير البيت السعودي حاكماً على الرياض حيث تلقى التهاني من مواطني المدينة.

وحاول عبدالعزيز بن رشيد التحرك لاحتواء الأحداث بيد أنه كان بطيئاً ولم يستطع أن يسترد مدينة الرياض. واكتفى بعد ذلك بتأمين موقعه العسكري في أواسط الجزيرة العربية حيث وضع نصب عينيه هدف الاستيلاء على الكويت؛ لهذا السبب مكث ابن رشيد في معسكره في حفر الباطن لبعض الوقت في انتظار مساعدة عسكرية من الأتراك، غير أن هذه المساعدة لم تجد أذناً صاغية من استانبول. وبحلول فصل الصيف اضطر ابن رشيد العودة إلى حائل لتجهيز حملاته العسكرية ضد عبدالعزيز آل سعود في الشتاء المقبل. وكان العمل الأول الذي اضطلع به الأخير هو إعادة بناء أسوار مدينة الرياض، وقام أيضاً بتنظيم الأقاليم الجنوبية لنجد، الخرج، الحوطة، الأفلاج ووادي الدواسر والتي لم تطالها سلطة محمد بن رشيد الفعلية رغم أنه كان يبعث برجاله إليها لجمع الضرائب. وأفضت المعاملة القاسية التي قام بها جنود محمد بن رشيد[1] ضد خصومه في الولايات الشمالية بعد انتصاره في معركة الصريف إلى تأييد سكان هذه المناطق لال سعود خوفاً من أن يطالهم عقاب آل الرشيد في حالة استعادتهم لنفوذهم في المنطقة.

---

(١) الذي قاد معركة الصريف هو عبدالعزيز بن رشيد، وليس محمد.

وخلال تلك الأحداث كان شقيقه محمد يده اليمنى وعضده الذي يستند عليه، وبقدوم فصل الخريف بدأ ابن رشيد هجومه المتوقع، وكان عبدالعزيز قد استعد لصد هذا الهجوم. وفي غمرة هذه الأحداث دعا ابن سعود والده ـ والذي كان قد تنازل له رسمياً عن الإمارة بعد معركة الصريف ـ للعودة للرياض على أن يكون وصياً على العرش في غيابه المؤقت في ميدان المعارك. وكان رجوع عبدالرحمن بن سعود بعد اثني عشر عاماً مناسبة للاحتفال بانتصار وعودة السلطة الشرعية للعائلة المالكة السعودية. وخلال الربع قرن التالية قدم عبدالرحمن لابنه عبدالعزيز المساعدة، مشورةً وتخطيطاً ودعماً معنوياً بصورة تظهر اعتزاز الأب بابنه وطاعة الابن لوالده. وفي مناسبات الاحتفالات كان الأب في مقدمة الحاضرين في حين أن أمور السلطة التنفيذية يضطلع بها كاملة عبدالعزيز. وكان الوالد هو الإمام بينما الابن هو الشيخ وقائد شعبه في السلم والحرب، بيد أن هناك أموراً قليلة ذات أهمية لم يكن يستشير فيها الأمير الشاب عميد العائلة المالكة.

وفي غضون ذلك كان ابن رشيد يقوم بمناوشات حربية بمجموعات استكشافية باتجاه الجنوب مؤملاً فتح ثغرات في جيش عبدالعزيز حيث لم يكن ممكناً شن هجوم مباشر بسبب قوة دفاعات الرياض العسكرية. ومن جهة أخرى كان عبدالعزيز في جنوب نجد يقوم بتجميع قوة عسكرية كبيرة ومؤن تمكنه من الاستعداد لحملة طويلة، في حين أن ابن رشيد قرر منعه من استكمال استعداداته العسكرية؛ لذلك تقدم الأخير صوب مدينة الرياض متجهاً نحو وادي السلي في طريقه إلى إقليم الخرج والذي كانت عاصمته

الدلم الهدف العسكري الأول لحملة ابن رشيد . ولكن ووجهت هذه الحملة بنيران كثيفة من الفرقة العسكرية المتقدمة لابن سعود مما أحدث ارتباكاً وسط صفوف آل الرشيد . واستمر إطلاق النار بين الجانبين إلى مغيب الشمس دون الوصول إلى نتيجة حاسمة لأي من الطرفين وإن كانت القوة المدافعة عن الخرج ثابتة في أماكنها ولم يتمكن المهاجمون من تحقيق هدفهم بالاستيلاء على المنطقة . وفي أثناء ذلك قرر ابن رشيد أن ينسحب في جنح الليل إلى بلدة السلمية حينما تبين له أن قوة عبدالعزيز لن تجرؤ على متابعة قواته؛ لذلك توجه باتجاه الشمال لإعادة تنظيم صفوفه استعداداً لجولة أخرى . أتاحت فرصة الانسحاب المؤقت لابن رشيد الفرصة لقوات ابن سعود لالتقاط الأنفاس وإكمال الاستعداد للدفاع عن منطقة الخرج .

وبصورة مفاجئة قام ابن رشيد بتغيير خطته وعاد بقواته إلى حفر الباطن في طريقه إلى الكويت حيث شن هجمات متوالية ضد قوات مبارك الصباح الذي استغاث بابن سعود، وأرسل الأخير قوات عسكرية لمساعدة جيش جابر الابن الأكبر للشيخ مبارك الصباح . واستطاعت قوة التحالف أن تصد جيش ابن رشيد الذي قفل راجعاً إلى دياره في حائل مما يعد انتصاراً حربياً لكل من ابن سعود ومبارك الصباح .

وبعد أيام قلائل كان ابن رشيد على مشارف مدينة الرياض، ورغم علم ابن سعود بزحف جيش ابن رشيد صوب الرياض، إلا أنه غادرها متجهاً نحو الأقاليم الشمالية لمحاربة مطير وغيرها من القبائل الموالية لابن رشيد مما أجبر الأخير للانسحاب من مدينة الرياض بعد قتال ضار حيث لم يفلح في اقتحام أسوارها .

وفي أثناء ذلك قام عبدالرحمن بن سعود بتشكيل قوة عسكرية لمتابعة قوة ابن رشيد المتقهقرة والتي وجدت نفسها في مواجهة قوة عسكرية ببلدة شقراء التي كان على رأسها مساعد بن سويلم والذي كان قد استولى أيضاً على "ثرمداء" واتخذها قاعدة عسكرية متقدمة. وكانت قرية ثرمداء من القرى الموالية في الماضي لابن رشيد؛ لذلك لم يجد مشقة في استردادها ممهداً الطريق لحصار شقراء. وخلال هذه الفترة برزت قوة سعودية بقيادة عبدالله بن جلوي الذي تمكن من السيطرة على بلدة ثرمداء بعد قتال عنيف ضد قوات ابن رشيد التي تراجعت باتجاه الشرق نحو إقليم سدير على هضبة جبل طويق. ولكن تمكن الوهابيون من اقتفاء أثر قوات آل الرشيد وبعد قتال ضارٍ دانت كل المنطقة للسيطرة السعودية بعد الاستيلاء على المجمعة عاصمة إقليم سدير وتعيين أحمد السديري حاكماً عليها. ويبدو أن الأمور السياسية في الجزيرة العربية قد أصبحت تحت قبضة عبدالعزيز آل سعود وليس أدل على ذلك من عودة العائلة السعودية من الكويت لتستقر نهائياً في الرياض.

وبعد نهاية فصل الصيف وإلى حلول خريف عام ١٩٠٣م شنت قوات ابن رشيد غارات على قبائل عتيبة وقحطان الموالية لآل سعود والتي كانت قد استعادت بلدة الوشم. وفي خضم هذه الأحداث غادر عبدالعزيز آل سعود الرياض نحو منطقة سدير لمراقبة الموقف العسكري ولاستكمال استعداداته للخطوات القادمة التي تتطلب الزحف نحو القصيم. بيد أن الجفاف الذي حل بوسط نجد وما أحدثه من مجاعة دفع عبدالعزيز لتأجيل خططه ورجع قافلاً إلى الرياض.

وانتهز ابن رشيد فرصة تجميد النشاط العسكري المؤقت لمنافسه عبدالعزيز آل سعود، فتوجه نحو الحدود العراقية لغرضين هما: تجنيد أفراد من قبيلة شمر القاطنة هذه المنطقة وللضغط السياسي من أجل الحصول على دعم عسكري من الأتراك لمواجهة الخطر الذي يتربص به من جهة الجنوب. وقبيل مغادرته حائل قام ابن رشيد باتخاذ بعض الخطوات الاحترازية بإنشاء قواعد عسكرية في منطقة السر شمال الوشم كما ترك القوة الضاربة من جيشه في القصيم تحت قيادة حسين بن جَراد بغية إخماد أي ثورات قد تحدث من الموالين لآل سعود في مدينة عنيزة التي انقسمت زعامتها إلى قسمين: إحداهما استمر على ولائه لابن رشيد، والآخر متعاطف مع الوهابيين.

وفي مطلع مارس ١٩٠٤م تقدم عبدالعزيز بجيشه نحو إقليم السر حيث تمكن من هزيمة قوات ابن رشيد وقتل قائدها. وأعطى هذا الانتصار سيطرة جزئية لآل سعود على قبائل حرب الهامة والتي ظل معظمها يدين بالولاء والطاعة لآل الرشيد في المنطقة الواقعة شمال وادي الرمة. وبعد وقت وجيز من سيطرة عبدالعزيز على منطقة السر بعث بالرسل إلى مختلف المناطق داعياً القبائل للالتقاء به في بلدة صادق الواقعة على هضبة جبل طويق. وهذا التصرف من قبل آل سعود يوحي بشيء من التراجع لأجل التقاط الأنفاس استعداداً للخطوة القادمة. ولكن فجأة ودون سابق إنذار ظهر جيش عبدالعزيز على أبواب عنيزة بمعية العديد من وجهاء قبائل الواحات وبرفقتهم معظم أحفاد زامل الذي هزمت جيوشه في المليداء عام ١٨٩١م. وكان حاكم عنيزة آنذاك من قبل آل رشيد ماجد بن سبهان الذي تدعمه عائلة البسام وغيرها من العائلات المحلية البارزة.

وبدأ الهجوم على الواحات بواسطة قوات عنيزة التي دعمتها في المراحل الأخيرة للمعارك قوة عبدالله بن جلوي المكونة من الجنود الموالية. وانجلى القتال بانتصار آل سعود حيث ترك ابن رشيد الأهالي الموالين له للاستسلام لقادة عائلة آل سليم بدلاً من وقوعهم في قبضة المتعصبين من قوة ابن جلوي. وبعد نهاية هذه المعركة تمكن ابن سعود من العثور بعد زمن طويل على أعمامه وثلاثة من أبناء عمه سعود الذين قدموا من حائل مؤملين الحصول على امتياز من الأحداث الجارية والتي تشير إلى انتصار الوهابيين رغم أنهم لم يشاركوا في صنع هذه الأحداث. واستقبل عبدالعزيز أبناء عمومته بترحاب كبير. وأحد هؤلاء سعود بن عبدالعزيز بن سعود وكان قد تزوج (نوره) شقيقة عبدالعزيز. وعاش الاثنان للاحتفاء بالذكرى العربية للأحداث. وكان كل من عبدالعزيز وسعود هما أكبر الأعضاء سناً في عائلة آل سعود، بيد أن كلاً منهما ينتمي إلى جيل مختلف عن الآخر، وكان للأخير التقدمة على أعضاء العائلة السعودية في مجلس ابن عمه – عبدالعزيز – الملك.

ولم يمكث عبدالعزيز زمناً طويلاً بل واصل انتصاراته بالزحف نحو بريدة التي لم يبذل ماجد بن سبهان جهداً في الدفاع عنها حيث سقطت حاميتها بعد شهرين.

واستطاع الآن ابن سعود بعد سنتين ونصف من دخوله على مدينة الرياض أن يستعيد كل أراضي آبائه وأجداده في نجد. وثمة إشارة هنا وهي أن كل ما أنجزه محمد بن رشيد بدده خليفته الذي يبدو أن مقدراته الحربية على طرف نقيض من عبثه كإداري.

ولو كان الهدف الأساسي لابن سعود لا يعدو أكثر من استعادة أراضي أسلافه فهو الآن قد أدرك إمكانية تكوين إمبراطورية شاسعة دون عوائق سوى رؤية عبدالعزيز بن رشيد الفلسفية لهزائمه، وربما جرياً على النهج البدوي كان الأخير ملؤه الأمل في أن يوم الثأر آتٍ لا محالة؛ لذلك لم يدخر وسعاً في محاولاته إقناع الأتراك بالعمل على إنقاذه لاسيما وأنه كان على قناعة بأن ابن سعود لن يقتنع بوقف حملاته العسكرية عند حدود القصيم. ومن جهة أخرى فقد تيقن الأتراك الآن استناداً على نشاطات ورأي كل من اللورد لانذردون واللورد كيرزون عام ١٩٠٣م بأن بريطانيا لن تتلاعب في مسألة استقلال الكويت والتي عين لها للمرة الأولى مندوب سياسي هو الميجور س.ج. كنوكس في السنة التالية رغم احتجاج الباب العالي؛ لذلك السبب توجهت أنظار الأتراك نحو المناطق الداخلية لمواجهة الأحداث التي لم يكن قد حسبوا لها حساباً وتهدد في ذات الوقت استقرار شمال الجزيرة العربية التي كثيراً ما عدوها جزءاً من الإمبراطورية العثمانية.

وكان ابن رشيد يعد نفسه تابعاً للدولة العثمانية رغم استقلاله الداخلي بينما نلحظ أن ابن سعود كان يعد فقط العدو المحتمل والمتحد مع عناصر تناصب الباب العالي العداء.

وعلى أية حال، فإن وضع ابن رشيد حرج للغاية لتنفيذ السياسة العثمانية في صحراء الجزيرة العربية. ورغم الصيف القائظ الحر فقد أرسل له الأتراك مساعدة حربية لتدعيم وضعه في منطقة القصيم. وبنهاية مايو عام ١٩٠٤م تحركت ثمانية كتائب تركية برفقتها مجندون من قبائل شمر من معسكرات البدو على امتداد نهر الفرات عبر الصحراء متوجهة صوب قصيباء في شمال القصيم متزامنة مع تسريح حامية بريدة التي سمح لها بالعودة أدراجها بعد أن أعلنت الاستسلام.

وبضم ابن سعود للقصيم أصبح من الضروري عليه أن يتخذ موقفاً فاعلاً لدرء الخطر عن جنده. وفي أثناء ذلك تحرك أحمد فيضي باشا القائد العسكري التركي بكامل جنده باتجاه الجنوب إلى مناطق المليحات في القرعاء بالقرب من المنطقة التي شهدت انتصار محمد بن رشيد (المليداء) عام ١٨٩١م. وخرج ابن سعود من بريده لمواجهة الخطر الماثل وعسكر بقواته بالقرب من البَصرْ على الجبال الرملية لمنطقة الخبوب، في حين أن العدو كان قد زحف بامتداد الكثبان الرملية باتجاه البكيرية. ونشبت معركة بين الطرفين في ١٥ يونيو واستمرت ليوم واحد دونما نصر حاسم. واستطاع الأتراك الصمود في أماكنهم في حين استطاعت قوات عبدالعزيز بن سعود الاستيلاء على معسكرات قوات شمر. وبالرجوع إلى مقر القيادة العسكرية وبعد نهب المعسكر وبعثرة محتوياته كان ما يثير الفزع أن الأتراك استطاعوا الاستيلاء على خيام الوهابيين حيث جرح عبدالعزيز بن سعود بطلق ناري وولى الأدبار معتقداً أن الهزيمة قد حلت بقواته، كما وأن حلفاءه قد انسحبوا من ميدان المعركة وعدو ذلك انتصاراً تكتيكياً للأتراك. ولو واصل الأتراك زحفهم لكان النصر حليفهم قبل أن يفيق خصومهم من هذه الصدمة ليستجمعوا قواتهم استعداداً لجولة أخرى، وبلغت الخسائر البشرية في كلا الطرفين آلاف القتلى.

ولحسن حظ ابن سعود فقد قرر الأتراك وحلفاؤهم من قبائل شمر خفض المستوطنات والدفاعات العسكرية على امتداد وادي الرمة والعكرشية إلى بلدة الرس. وفي غضون ذلك دعمت القوات الوهابية بإمدادات عسكرية من قبائل عتيبة ومطير مما جعل ابن سعود في وضع يمكنه من التقدم نحو البكيرية التي

ترك فيها الأتراك معسكرهم وإمداداتهم تحت حراسة ضعيفة وتوجهوا نحو القرى المجاورة باتجاه الغرب.

وبعد قتال لم يدم طويلاً مع كتيبة الفرسان التركية استطاع الوهابيون الاستيلاء على معسكر البكيرية حيث كانت القوات التركية حينها تمطر قرية الخبراء بوابل من المدفعية الثقيلة لكنها صمدت إلى أن اضطرت في نهاية المطاف للاستسلام بسبب تفشي وباء الكوليرا الذي لم يكن حينها معروفاً في الصحراء العربية. وتقدم الأتراك بعد ذلك نحو "الشنانة" بغية حصار مدينة الرس، فأسرع ابن سعود بقواته لحماية المدينة ضد الهجوم المتوقع. واقتنع الأتراك بان حصار المدينة يحتاج إلى هجوم مدفعي طويل الأمد ومناوشات متقطعة. واستمر الطرفان في مواجهة عسكرية وجهاً لوجه لمدة ثلاثة شهور في فصل شديد الحر، ومما زاد الأمر سوءاً تفشي وباء الكوليرا في معسكرات القتال لدى الجانبين. وفي ظل هذه الأوضاع تعرض الجيش الوهابي إلى تمرد، ولم يكن هناك خيار لابن سعود سوى الجنوح إلى السلام.

وفي الجانب الآخر سخر ابن رشيد من تذمر جنوده الذين أبدوا امتعاضاً من طول الحرب التي لا طائل من ورائها؛ لذلك سمح لهؤلاء الجنود بالرجوع إلى ديارهم لإحياء المروج ورعي الإبل. ولكن لم يكن ابن سعود مستعداً للسماح لجنود غريمه ابن رشيد بالإياب بسلام إلى مضاربهم، فهاجم قوافلهم بضراوة. وفي الجانب الآخر قام الأتراك بهجمات معاكسة أمطروا مزارع "قصر ابن عقيّل" المحصنة بقذائف المدفعية، واضطر ابن سعود لمجابهة الخصوم وتمكن من الانتصار عليهم ودفعهم باتجاه وادي الرمة. واستطاع فرسان شمر بعد

هنيهة إنزال ضربات عنيفة على الجناح الأيمن للقوات الوهابية مما اضطر بعض هذه القوات للتزحزح عن بعض أراضيها؛ لذلك أمر ابن سعود القوة الضاربة من جنده بالهجوم على منتصف القوات المهاجمة حيث تقبع المدفعية التركية الثقيلة، ونجح في صد الهجوم المعاكس وسجل انتصاراً ساحقاً على قوات شمر والقوة التركية المساعدة وظفر بغنائم كثيرة من بينها كميات كبيرة من الذهب التركي.

وهكذا نلحظ أن حملة ابن سعود التي لم تبدأ معاركها بنجاح في البكيرية حتى يونيو ١٩٠٤م استطاعت أن تسجل انتصاراً حاسماً في سبتمبر من العام نفسه وانسحب بعدها الأتراك نهائياً من ميدان القتال في الجزيرة العربية حيث استسلم بعضهم لابن سعود، بينما هلك البعض الآخر بسبب الأمراض والعطش في الصحراء، وتراجعت ثلة منهم مع قوات ابن رشيد المتقهقرة نحو حائل.

وفي الوقت نفسه كانت القوات التركية مضطرة للذهاب إلى اليمن في حملة أطلق عليها اسم "المغامرة الكبرى" لذلك طلب من فيضي باشا الدخول في مفاوضات مع ابن سعود الغرض منها جعل منطقة القصيم إقليماً عازلاً بين الدولة الوهابية ونظيرتها الشمرية مع وضع قواعد عسكرية تركية في كل من عنيزة وبريدة تحت إشراف حاكم عام تركي. ويبدو أن الأتراك نادراً ما يلحظوا المخاطر التي تحيط بقواتهم العسكرية في الجزيرة العربية. بيد أن ابن سعود الذي لم يكن واثقاً أيضا من وضعه مع سكان هذا الإقليم (القصيم) المتقلبي الأهواء قرر أن يناقش أوضاعه استناداً على النقاط التي اقترحها الأتراك وعين والده مفاوضاً مع القائد التركي فيضي باشا. واستمرت المفاوضات بين الجانبين

لشهور عديدة دون أن تصل إلى نتيجة إيجابية لكلا الطرفين حتى داهمت الأحداث في اليمن الأتراك مما اضطر فيضي باشا التوجه بقواته لليمن لحفظ الأمن والنظام هناك. وخلفه نائبه صدقي باشا الذي توصل لاتفاق مع ابن سعود يتم بمقتضاه سحب القوات التركية من المنطقة باتجاه المدينة والعراق. واشترط ابن سعود فقط أن تنسحب القوات التركية بصورة منظمة دون تحرش، وأن القوة العسكرية المتمركزة في المدينة تبقى في مكانها إلى أن تعبر بقية القوات الحدود نحو العراق. واتخذت هذه الاحتياطات خوفاً من أن تغدر القوات التركية بالجيش الوهابي. ولكن يبدو أن الأتراك كانوا مسرورين لمغادرتهم المنطقة والتي اكتملت دون مضايقات أو تحرشات.

وثمة إشاعة فشت مفادها أن مرض الزهري (السفلس) الذي لم يكن معروفاً في أواسط الجزيرة العربية منذ دخول الأتراك هذه المنطقة منذ بواكير القرن التاسع عشر، عاد للظهور مرة أخرى متزامناً مع حملة القصيم الحربية. ولسوء الحظ فإن المرض الذي أصبح الآن شائعاً في الجزيرة العربية يحتاج إلى تسليط الضوء عليه، غير أن الإصابات بهذا المرض كانت قليلة عندما سافرتُ لأول مرة إلى نجد قبل ما ينيف عن ثلاثين عاماً. وكانت الإصابات الموجودة آنذاك بسبب الحملة التركية أو التداخل البشري مع المناطق الساحلية وبخاصة الحجاز.

وأدى رحيل الأتراك من أواسط الجزيرة العربية إلى تقوية نفوذ ابن سعود. وترك المتنافسان الرئيسان في السيطرة على الصحراء العربية وجهاً لوجه لتسوية المواضيع الماثلة بينهما دونما أي تدخل خارجي. ومن جهة أخرى، فإن مبارك الصباح حاكم الكويت أصبحت تنتابه الآن الغيرة من الإنجازات المتميزة

لتلميذه السابق ابن سعود؛ لذلك فكر بصورة متشنجة في الكيد له بالتعاون مع خصمه القديم ابن رشيد.

وكان ابن سعود يأمل في الحفاظ على القصيم تحت إدارته، ولكن المكايدات من أطراف خصومه كانت مقلقة له بدرجة كبيرة. وللتعامل مع هذه الأحداث انتهز ابن سعود فرصة توسل قاسم بن ثاني بالمساعدة، وكان الأخير قد نازعه شقيقه أحمد على العرش؛ لذلك غادر ابن سعود القصيم باتجاه الخليج رغم توجسه من انتهازية ابن رشيد ولإدراكه أنه سيحاول استعادة هذا الإقليم. وصدق توقع بن سعود حيث انتهز ابن رشيد فرصة غياب الأول عن أواسط الجزيرة العربية وزحفت قواته لتحتل الرس واتخذها قاعدة متقدمة تمهيداً لمعارك حربية مستقبلية بغية استعادة القصيم. أرسلت كتيبة عسكرية لاستعادة الرس لكنها هزمت، ولقن بعدها ابن رشيد مواطني الرس درساً في الترويع والترهيب مثلما تصرف في السابق بعد احتلاله لبلدة الصريف[1]، مع أهالي الوشم وسدير؛ لذلك لم يكن من المستغرب أن يطالب سكان مدن عنيزة وبريدة وبالصوت العالي رجوع ابن سعود لاسيما بعد أن طلب الشيخ مبارك الصباح من ابن رشيد مقاومة هذه التطورات في منطقة القصيم.

وبعد أن رجع ابن سعود من قطر ومساعدته لشيخها قاسم بن ثاني باحتواء المخاطر التي كانت تهدده، شرع في تنظيم جيشه وإدارته في الرياض. وكان العمل العسكري الوحيد الذي قام به هو إرساله لشقيقه لمحاربة قبيلة حرب في منطقة شمر في الشمال في ذات الوقت الذي كان فيه ابن رشيد ما

(١) الصريف اسم موضع وليس اسم بلدة كما توهم المؤلف.

يزال يثير عدم الاستقرار السياسي في المنطقة بغاراته المتكررة على قبائل مطير. وبحلول خريف عام ١٩٠٥م تحرك ابن سعود بجيشه شمالاً حيث عسكر في منطقة الأسياح برفقة قوة عسكرية من بريدة يقودها حاكمها صالح المهنا. وساورت ابن سعود بعض الشكوك والظنون حول نوايا حاكم بريدة مما دفعه لتغيير معسكره إلى الزلفي التي تجاور أقاليم الوشم وسدير بقبائلها المؤيدة للوهابيين. وعند وصوله إلى الزلفي ترامت إلى أسماعه مكايدات مبارك الصباح مع كل من ابن رشيد وحاكم بريدة. وفي غمرة هذه الأحداث طلب من الكتيبة العسكرية في بريدة بأن ترجع أدراجها وحلت محلها قوة نظيرة من قبيلة مطير تحت قيادة رئيسها المهيب فيصل الدويش.

وانقضت الشهور الأولى من عام ١٩٠٦م في مناوشات متقطعة بين كل من ابن سعود وابن رشيد. وفي أبريل من العام نفسه قام ابن رشيد بتحريك قواته حيث رابط على مسيرة ساعات قلائل من قوات ابن سعود بهدف الانضمام إلى قوات بريدة في الشقة. والآن حانت الفرصة لابن سعود ولكيما يتجنب هجوماً مباغتاً من العدو أمر قواته بالتقدم راجلة في المنطقة الفاصلة بين الجيشين. ولم تكتمل المفاجأة والتحم الجيشان في معركة عنيفة انتهت بهزيمة جيش شمر ومقتل قائده عبدالعزيز بن رشيد[١]. ورغم انتهاء التنافس في الجزيرة العربية بين آل سعود وآل الرشيد بعد هذه المعركة الفاصلة، إلا أن عبدالعزيز لم يتقدم بجيشه نحو مدينة حائل لحسم الأمور بشكل نهائي. وفي خضم هذه الأحداث هرعت مجموعة من عائلة آل الرشيد من ميدان المعركة

(١) تعرف هذه المعركة باسم: روضة مهنا.

صوب مدينة حائل بغية الاستيلاء على السلطة، في حين عاود الأتراك غاراتهم في أواسط الجزيرة العربية مرة أخرى ضد كل من حاكم بريدة وفيصل الدويش ومتعب بن عبدالعزيز بن رشيد بهدف إيجاد موطئ قدم لهم مرة أخرى في المنطقة. وكان بوسع ابن سعود ترك حائل تصطرع حول وراثة عرش شمر حيث قام بالقبض على حاكم بريدة صالح بن مهنا وأحضر إلى مدينة الرياض.

وفي غضون هذه التطورات أرسلت الحكومة التركية حاكم المدينة المنورة سامي باشا للتباحث مع حاكم حائل الجديد الذي وافق على أن تكون القصيم ولاية تركية. ورفض عبدالعزيز بن سعود التدخل التركي في أواسط الجزيرة العربية، بل رفض أن يستلم مبلغاً من المال كرشوة للموافقة على التدخل التركي في هذه المنطقة، وجدير بالملاحظة أن رحيل القوة العسكرية التركية بسبب إنذار ابن سعود أنهى ثلاث سنوات من الجهد المبذول لإيجاد منطقة نفوذ للأتراك في الصحراء العربية. وتبدلت العلاقات بين الجانبين بعد ذلك نحو الأفضل رغم وجود نفوذ للأتراك في إقليم الأحساء الذي عين له سيد طالب النقيب كمتصرف – حاكم إقليم – للعمل من أجل الحد من النفوذ المتزايد لابن سعود في المنطقة.

وثمة فترة أعقبت هذه الأحداث جنح فيها ابن سعود إلى الراحة متكئاً على إنجازاته الماثلة للعيان، غير أنه عمل بصورة أكبر على تنظيم إدارته واستتباب الأمن في مناطق نفوذه بدلاً من التوسع العسكري في الجزيرة العربية. وأعان عبدالعزيز آل سعود والده والزعماء الدينيون في مدينة الرياض من أجل أن يؤسس دولة على أساس بعث ونهضة دينية. وأبان تاريخ أسلافه أن الحماس الديني كان على الدوام مستوطناً في الصحراء العربية، وإذا تم

تنظيم هذا الحماس الديني واستغلاله بصورة صحيحة يمكن أن يتحول إلى قوة دفع عارمة بين أواسط الفلاحين والبدو في نجد، ويحيلهم إلى قوة عسكرية ضاربة، بيد أن المحافظة على هذا الحماس الديني المتعصب لفترة محدودة يبدو مستحيلاً في أجواء الجزيرة العربية ومجتمعها المتقلب. ولكن يلحظ أن منجزات الحروب الدينية في أغلب الأحايين تبعثرها النزاعات القبلية.

وفي ذات الوقت كانت تجربة محمد بن رشيد كثيراً ما تشير إلى أن العبقرية السياسية يمكن أن تعمل على المحافظة على الدولة في السلم والحرب، غير أن إنجازاتها يمكن أن يضعفها غياب العمل الشخصي الفاعل. ويمكن لنا أن نرجع بالذاكرة إلى الوراء لنلحظ أن في تاريخ الجزيرة العربية شخصية جمعت بين العبقرية السياسية والحماس الديني، وهي شخصية النبي محمد ﷺ الذي أنشأ إمبراطورية في الصحراء العربية امتد نفوذها إلى ما وراء حدود هذه الجزيرة، لكنها انهارت بسبب الضعف الذي اعتراها من جراء المكايدات والتدخلات الخارجية التي أضعفت أساسها الديني. ومثل هذه الحالة يمكن أن نجدها حتى في عصرنا الحالي حيث نلحظ انهيار العديد من الممالك بسبب فشلها في إيجاد قيادات تتميز بالكفاءة في كل الأوقات لاسيما في زمن الأزمات.

ثمة إشارة أخرى هنا وهي أن نشأة ابن سعود كانت في كنف العقيدة الإسلامية التي تبينها أقوال الرسول الكريم الموثقة وقبل ذلك القرآن الكريم لذلك فإن حياته كانت تقتدي بالنموذج الإسلامي.

ولا ريب أن الإسلام في تاريخه الطويل قد شابته بعض البدع التي كثيراً ما تم التخلص منها والرجوع بالإسلام إلى سيرته النقية الأولى بواسطة بعض المصلحين أمثال أحمد بن حنبل وابن تيمية ومحمد بن عبدالوهاب؛ وذلك من خلال تطبيق المنهج السلفي الذي عن طريقه يمكننا فهم الإسلام الصحيح كما جاء عن الرسول الكريم وأصحابه رضوان الله عليهم؛ لذلك كان الهدف واضحاً منذ البداية لابن سعود وهو تنقية الإسلام من البدع والخرافات المتوارثة في مجتمع الجزيرة العربية بغية تأسيس نظام قوي لا تنفصم عراه. وهذا يعني إصلاح الحياة البدوية في الجزيرة العربية والعمل على توافقها مع حياة أهل الحضر في الولاء العام لإدارة مركزية. وهذا يقتضي بالطبع العمل على استقرار مجموعات من البدو في مستوطنات مختلطة مع أهل القرى؛ لذلك بدأ العمل برجال الدين الذين كان عليهم إرشاد البدو نحو الدين الإسلامي الصحيح وحثهم على الابتعاد عن العادات التي تدخلهم في زمرة أهل الشرك، وتبع ذلك إنشاء مستوطنات زراعية وأدخل نظام تعليم بين مجموعات البدو لم يكن من المتوقع أن يؤتي أُكله بين ليلة وضحاها.

ولم يمض عام ١٩١٢م حتى تم إنشاء أول هجرة لـ "الإخوان" في منطقة آبار الأرطاوية الصحراوية (كانتون) والتي تعد النواة الأولى لمعسكرات تجنيد أنصار الحركة الوهابية. وقام ابن سعود استناداً على مصادر دخله الضئيلة بتوفير بعض المال لبناء المساجد وصيانة المؤسسات الدينية وحفر الآبار في المناطق الزراعية وتوفير الأسلحة والذخيرة لجيوشه. وخلال فترة وجيزة تطورت كل هجر الأرطاوية وقطنان وتحولت إلى مدن كبيرة ذات كثافة سكانية تصل

إلى حوالي ١٠,٠٠٠ فرد، في حين أن متوسط سكان القرى يصل في زمن الاستعداد للحرب إلى ٢٠٠ شخص، ويصل إجمالي سكان الهجرة إلى ٢٥,٠٠٠ فرد، بينما نلحظ أن عدد الذين تم استدعاؤهم للتجنيد في أي حملة حربية لا يزيد عن ٥٠٠٠ فرد، وكانت الأحوال في الجزيرة العربية حينذاك لا تسمح بتجنيد عدد كبير من الأفراد في الغزوات الحربية، وربما أكثر الحملات الحربية عدداً تلك التي توجهت صوب شرق الأردن أعوام ١٩٢٢-١٩٢٤م ولم يصل تعداد أفرادها عن ألف. وتعد الجيوش الوهابية التي توجهت نحو الحجاز من الحملات الكبيرة العدد حيث إن معظم أفرادها كانوا من الفلاحين الوافدين من المدن الريفية القديمة. ومن مميزات هؤلاء المقاتلين شجاعتهم، فضلاً عن حماسهم الزائد، بيد أنهم أقل انضباطاً في حالتي النصر والهزيمة.

وهكذا فإن السنوات التي تلت انتصار "روضة مهنا" بذلت في توطيد دعائم الإدارة وأركان الدولة. وفي بعض الأحيان يجد ابن سعود نفسه في وضع يجعله مضطراً للقيام بحملات عسكرية في مناطق متفرقة من البلاد بغية بسط الأمن والنظام. وفي غضون ذلك كان حاكم بريدة الجديد محمد أبا الخيل نادراً ما يشق عصا الطاعة كما كان يفعل سلفه، بيد أن هذه المرة تآمر مع فيصل الدويش لاستعادة القصيم من ابن سعود. وقام الأخير على جناح السرعة بالتحرك لاحتواء الموقف غير أنه وجد أن بوابات القصيم قد أغلقت في وجهه. واستطاع بمساعدة بعض أصدقائه داخل المدينة أن يقتحم هذه الأسوار ووقع حاكمها في قبضته وزجره على تصرفه ومحاولته الخروج عن سيادة الدولة الوهابية. وكانت الخطوة التالية له هي إخماد ثورات قبائل

مطير ومن ثم قفل راجعاً للرياض. وعند وصوله مباشرة تناما إلى مسامعه تطورات جديدة في القصيم. وبتحريض من حاكم بريدة ومطير والشيخ مبارك وبعد العقوبات العنيفة التي حلت بهؤلاء من سلطان بن حمود الذي دخل حائل واغتال متعب بن عبدالعزيز وثلاثة من أبنائه واستولى على السلطة، وصل ابن سعود إلى عنيزة ليجد تحالفات جديدة تحول بينه وبين بلوغ بريدة. وخلال نشاط عسكري في منطقة سبخة تعرض ابن سعود لكسر في كتفه "الترقوة" عندما سقط فرسه عليه. ورغم ذلك واصل زحفه إلى الطرفية لحرب قبيلة مطير التي انتصر عليها في نهاية المطاف وعادت بقية قوات خصمه إدراجها إلى حائل. وبقيت حامية لآل الرشيد للدفاع عن مدينة بريدة وتمكن ابن سعود من الإغارة على القرى المحيطة ببريدة واستولى على غنائم كثيرة من بينها أعداد ضخمة من المواشي. وبعد فترة وجيزة من ذلك الحدث طاف سلطان بن حمود بهذه القرى للتخفيف ومواساة أهل القرى التي أغار عليها الوهابيون. وبعد ذلك بدأ ابن رشيد مفاوضاته مع ابن سعود بهدف إنهاء الحرب ورفع راية السلام استناداً على بقاء الوضع الراهن دون تغيير يذكر وفي الشهر نفسه (يناير) قتل سلطان بواسطة أشقائه سعود وفيصل واستولى الأول على العرش بينما ذهب فيصل للجوف حاكماً عليها.

وفي غضون ذلك تمكن ابن سعود من دخول بريدة عندما أعانه بعض أهاليها على فتح أبوابها وكانوا قد ذاقوا الأمرّين من صراعات الأسرة الحاكمة فيها. وأعلن محمد أبا الخيل استسلامه بضمان المحافظة على حياته الشخصية وغادر المدينة نهائياً منفياً للعراق. واقتنع ابن سعود أنه لا يمكن أن يضع ثقته

في أي قوة محلية داخل المدينة، لذلك أصدر أمراً بتعيين ابن عمه ونصيره الوفي عبدالله بن جلوي حاكماً عاماً على إقليم القصيم ومن ذلك الحين هدأت الأحوال تماماً في هذه المنطقة ولم تعد تشكل هاجساً أمنياً لدولة ابن سعود.

وفي أثناء ذلك كانت مدينة حائل تمور بأحداث جسام تمثلت في نزاع سياسي عنيف، ففي سنة ١٩٠٨م ظهرت حركة عملت على تثبيت سعود أصغر أبناء عبدالعزيز بن رشيد على عرش حائل. وقاد هذه الحركة السياسية أبناء عمومة سبهان (حمود وزامل) وهما من أبناء العائلات المرموقة في المدينة وتمكنا من إنقاذ هذا الصبي اليافع (سعود) من محرقة سلطان بن حمود. وظهور هؤلاء القادة بقواتهم المسلحة أمام قلعة حائل وجد ترحيباً من أعداد غير قليلة من الأهالي الذين كانوا غير راضين عن مغتصب العرش. وفي القتال الذي أعقب ذلك، اغتيل سعود بن حمود، أما الذين بقوا على قيد الحياة ومن بينهم فيصل وضاري فقد لجؤوا إلى مدينة الرياض. وتم تنصيب سعود أميراً على حائل تحت وصاية حمود بن سبهان، ومات الأخير بعد فترة وجيزة غيلة بالسم وخلفه على وصاية العرش زامل. وفي كل هذا الوقت لم يتدخل ابن سعود في الأحداث الدائرة في حائل. وكل ما فعله هو تجديد اتفاقية الحدود بينه وبين الوصي على عرش حائل مما كان له الأثر الكبير في إشاعة السلم بين الدولتين.

وحان الوقت الآن للتوجه للجنوب لمجابهة الاضطرابات هناك، ففي منطقة الحريق عند رأس الحوطة نشبت نزاعات بين القبائل التي تتزعم أهالي المنطقة؛ لذلك تحرك ابن سعود للمنطقة لإعادة الأمن والنظام. ولم تستطع في البدء القوة العسكرية الصغيرة التي قادها أن تدخل بلدة الحريق مما دفعه إلى إحداث

ثغرة (نفق) داخل المدينة، وتمكن في نهاية الأمر من إعادة الأمن للمنطقة بعد استسلام قادة عائلة الهزاني الذين أرسلوا للرياض للبقاء هناك كضيوف لدى الحكومة السعودية.

ويبدو أن استتباب الأمن العام رغبة بعيدة المنال لابن سعود، فقد أدى سقوط الأمطار شتاء ١٩٠٩ / ١٩١٠م والجفاف الذي حل بدولته إلى انفلات أمني تمثل في الغارات القبلية، حيث هاجمت قبائل العجمان العديد من القبائل الكويتية بتشجيع من بعض الأسر المطالبة بعرش نجد. ووصلت شكاوي مبارك الصباح لابن سعود بالإضافة إلى أخبار جديدة عن أنشطة عسكرية في جبل شمر على ضوء التفاهم الذي حدث بين زامل بن سبهان مع سعدون باشا التركي من المنتفق. ولأجل إبعاد ابن سعود من هذه الأحداث قام السابق (زامل بن سبهان) بتشجيع قبائل العجمان بالضغط على الكويت تحدياً لأي أوامر قد تصلهم من مدينة الرياض. وفي أثناء ذلك كان ابن سعود على اتصال مع نوري الشعلان شيخ الرولة وفهد بن هذال شيخ العمارات بهدف تنظيم هجوم قوي على جبل شمر أو على معسكرات بن سبهان في الصحراء الشرقية. غير أن نتائج هذه النشاطات العسكرية لم تكن ذات جدوى. ودخل الوهابيون في مناوشات عسكرية قصيرة مع قوات المنتفق في الغربية بالقرب من الحدود العراقية في حين أن معسكر العمارات تم احتلاله بغارة كبيرة شنتها جيوش شمر. وفي نهاية الأمر كان لمبارك الصباح اليد الطولى في مفاوضات السلام التي جرت بين كل الأطراف المتنازعة. ولكننا نجد أن مبارك الصباح يتراجع الآن عن أحلامه القديمة في أن يكون الشخصية

المحورية التي تعمل على حفظ توازن القوة في المنطقة العربية؛ وذلك بعد أن أدى نشوب الثورة التركية عام ١٩٠٨م إلى بزوغ حركة القومية العربية التي برز فيها آنئذٍ كزعيم كل من الشيخ خزعل صاحب المحمرة وسيد طالب من البصرة في حين أن سعدون باشا قد ظهر كبطل محلي للجنة "الاتحاد والترقي".

وبدرجة ما ودونما تدبير مسبق يبدو أن ابن سعود الآن في موقف الدفاع في خضم الأحداث التي تعمل على زعزعة الاستقرار في الجزيرة العربية. ولم يكن لابن سعود سوى القليل أو ربما لا شيء يخشاه البتة من هذه الأحداث وربما كان هناك شيئاً يمكن كسبه على حسابه. ولم تكن ظروفه المالية على ما يرام.

وفي هذه اللحظة برز خطر في منطقة لم يكن يتوقع نشوب حرب فيها وهي مكة المكرمة، ورغم معارضة القبائل البدوية وأمراء مكة فقد وصل خط سكة حديد الحجاز المدينة المنورة عام ١٩٠٨م وفي ذات العام عين السلطان عبدالحميد الشريف حسين بن علي أميراً على مكة. وفي ظل هذا الوضع أصبح الشريف حسين بالطبع خادماً للحكومة التركية، ورغم نجاحه في مقاومة تقدم خط السكة الحديد باتجاه مكة إلا أنه أظهر قدراً كافياً من الولاء للسلطان العثماني. ولم يمض عام ١٩١١م، على أية حال، حتى وجد الشريف حسين الفرصة مواتية لتقديم خدمة متميزة للأتراك وذلك بإخماده لثورة الأدارسة في إقليم عسير. وهذا الانتصار إضافة إلى زحفه المنصور من أبها عن طريق بيشه، رنية، تربة والطائف كل ذلك جعله نموذجاً مثالياً لأداة يمكن أن يستغلها الأتراك في توسعهم داخل صحراء الجزيرة العربية، ويكون بالتالي بديلاً لابن رشيد الذي فقد مصداقيته.

ولا ريب أن الحسين قد أبرز ما يجعله موضع ثقة للحكومة التركية.

ويبدو الآن أن المنادين بأن لهم حقاً وراثياً في العرش قد دخلوا في صراع مفتوح مع الوهابيين وشجعهم على ذلك المأزق السياسي الواضح الذي كانت تعيشه الجزيرة العربية آنذاك؛ ولهذا السبب فقد أرسل شقيقه سعد لتجنيد أنصار من قبائل عتيبة في الوقت نفسه الذي كان فيه الشريف حسين قد وصل القويعية بهدف استمالة هذه القبيلة نحو الحكومة التركية. وحدث أن وقع سعد في قبضة الشريف حسين الذي فرح بأسره وتوجه به صوب مكة المكرمة. واقتفى ابن سعود أثر الشريف حسين بهدف إقناعه لفك أسر شقيقه. والتقى الشريف حسين بابن سعود في منتصف الطريق وطلب منه ثمناً لهذا الطلب أن يرفع العلم التركي في منطقة نفوذه وأن يبدي له حسن النية وعدم الرغبة في معاداته لاسيما وأن الأخير يحكم منطقة تعد دويلة تابعة للسلطة العثمانية. وعلى ابن سعود أن يعترف بالنفوذ العثماني على القصيم وهو ما كان يبتغيه الأتراك في صحراء الجزيرة، فضلاً عن دفع إتاوة معينة للباب العالي. وإذا استجاب عبدالعزيز بن سعود لهذه الشروط سيطلق سراح شقيقه في الحال، وإذا لم يستجب سيؤخذ شقيقه إلى الحجاز ومنها إلى تركيا كدليل محسوس على عناد ابن سعود وعدم ولائه للسلطة التركية.

ولهذا يمكننا القول إن الحكومة التركية قد استفادت من حكمة الحسين ابن على في وظيفته التي عينته فيها والتي حاولت ولسنوات عديدة إعطاءها لابن رشيد. ومن جهة أخرى، فإن ابن سعود لم يكن في وضع يمكنه من المساومة مع السلطة التركية مما اضطره قبول شروط الحسين بن علي لإطلاق سراح شقيقه، ورجع شريف مكة إلى بلده مبتهجاً بانتصاره.

ورجع الآن سعود إلى منطقة الحريق ترافقه قوة عسكرية كبيرة. وما إن عاد زعماء الهزازنة إلى موطنهم حتى دخلوا بعد فترة وجيزة في نزاعات مع منافسيهم.

ومكث عبدالعزيز بن سعود لفترة من الزمن لاستعادة الأمن والنظام بعد أن كان عقد الأمن قد انفرط في منطقة قبيلة الدواسر، وبعد ذلك توجه نحو الأحساء بهدف إفشال محاولات تحريض قبائل العجمان واستمالتهم لجانبه. وفور وصوله إلى المنطقة الشرقية وصلته رسالة استغاثة من الشيخ مبارك الصباح الذي طلب مساعدته في مواجهة الضغط المتزايد من سعدون باشا، مما دفعه للزحف شمالاً باتجاه حفر الباطن. وبمساعدة من قبيلة الظفير التي كان يتزعمها مبارك بن سويط أغارت قوات عبدالعزيز على معسكر المنتفق في كويبدة وقرب الزبير. ولم يتوقف حتى طلبت منه السلطات التركية إيقاف الأعمال العدائية بالقرب من حدود البصرة. وبعد ذلك توجهت القوات الوهابية جنوباً نحو الأراضي الداخلية لإقليم الأحساء لمحاربة قبيلة العجمان بجدية ولم يقف أمامها سوى احتجاجات الحكومة التركية.

وبالرجوع إلى الرياض بدأ عبدالعزيز يتعامل مع شرعية وضعه هناك حيث نفذ برنامجاً للنهوض الديني كان قد ابتدأه منذ سنوات عديدة. أما معسكرات تجنيد أنصار الحركة في الأرطاوية فقد أصبحت حقيقة واقعة بحلول عام ١٩١٢م، كما أن حركة "الإخوان" قد تطورت بشكل كبير حيث حضرت لعبدالعزيز قوة عسكرية يمكن استخدامها للدفاع والهجوم معاً. ويبدو الآن أن ابن سعود في وضع سياسي يمكنه من التوسع على حساب جيرانه، ولكن إلى أي حد يمكنه أن يستمر في تنفيذ هذه المخططات، هذا هو

السؤال الذي ربما لا يكلف ابن سعود نفسه في الإجابة عليه، بيد أنه كان مقتنعاً بأن الأجدى له أن يتحسس طريقه قدماً نحو الأمام دون وضع حدود لطموحاته المستقبلية.

ومن المستغرب في تلك الظروف بالذات أن يبدي ابن سعود تجاهلاً لحائل الطرف الشمالي من الجزيرة العربية والذي لا يشكل فقط جزءاً مكملاً لدولة أسلافه وجانباً من اقتصاديات الصحراء، بل خطاً متقدماً للسيطرة التركية أو على الأقل منطقة نفوذ تركي في إقليم القصيم الذي دفع حرية شقيقه ثمناً لخروجه منه. وربما أقل غرابة في هذه المرحلة أن لا يأبه ابن سعود للخطر القديم القادم من الغرب، ويبدو أنه قد شعر بالثقة في قدرته على دحر أي زحف عربي مدعوماً بواسطة الأتراك نحو مناطق نفوذه لاسيما بعد أن أصبحوا أقل رغبة في التدخل في الجزيرة العربية بعد حملة البكيرية، ومن ناحية أخرى، فإن الظروف الماثلة وقلة العتاد الحربي ربما دفعاه إلى عدم الدخول في معارك عسكرية في الوقت الراهن وادخار ما لديه من إمكانيات لمستجدات مستقبلية قد تشكل خطراً على دولته.

انشأ الأتراك ولاية تركية قوية في إقليم الأحساء بلغ مداها أربعين عاماً. ويروي الكابتن ج. أ. ليتشمان في رحلته من بغداد عن طريق القصيم إلى الرياض حيث قابل ابن سعود قبل حملته على الحريق أن هناك حامية تركية في الهفوف كانت في أوضاع جيدة عام ١٩١٣م. وخلال أربعة شهور من زيارته لهذه الحامية والمخافر الأخرى التابعة لها في أماكن متفرقة من الأحساء غادر جنودها الجزيرة العربية نهائياً وانتهى بذلك الاحتلال التركي لهذه المنطقة.

وحقيقة لم يكن الأتراك أكثر ارتياحاً في الأحساء مثلما كانوا في أطراف العراق مثل سوق الشيوخ على سبيل المثال؛ لذلك كان سكنهم يتمركز في المدن وعلى امتداد الطرق من أجل السلامة، وفي الأخيرة كانوا يوجدون داخل مراكز محصنة على مسافات محددة بهدف تأمين وصول القوافل والمراسلات، وكان الجنود الأتراك لا يرغبون البتة في العمل في أقاليم الجزيرة العربية، وأكثر ما يمكن أن يقال عنهم أنهم كانوا يهدفون إلى الاستفادة القصوى من وظائفهم السيئة في هذه المنطقة. ويجدر التنويه أن وضعهم في اليمن وعسير كان مغايراً بعض الشيء حيث كانوا يأخذون زوجاتهم وأسرهم الذين وجدوا أوضاعاً أقل عسراً، بيد أن نسبة الوفيات كانت عالية مما أعطى انطباعاً لهؤلاء الجنود بأن الخدمة في الجزيرة العربية تعني الحكم المؤبد مدى الحياة.

لا ريب أن خطط ابن سعود لم تكن جاهزة لتنفيذها في الجزيرة العربية، رغم أن الأتراك كانوا البادئين والمتطوعين لاستفزازه. واستناداً على سبب جيد صُنّف ابن سعود عدواً غير صاغ لصوت العقل والإقناع؛ لذلك لم يكونوا مقتنعين بترك هؤلاء الأعداء حتى تقوى شوكتهم؛ لذلك منذ عام ١٩١٣م نصب الأتراك شبكة من المكايدات والاضطرابات حول أطراف حدود الدولة الوهابية. وهناك الشريف حسين الهدف الأول لمخططاتهم في الجزيرة العربية، أما قبيلة العجمان فقد كانت مصدراً دائماً لإزعاج ابن سعود في حين أن فيصل الدويش وفي معيته قبائل مطير كانوا يعملون على تعكير صفو الأمن والنظام بغارات متفرقة. وفي العراق خلف سعدون باشا ابنه عجيمي الذي لم

يكن كارهاً لرفع علم لجنة "الاتحاد والترقي" . أما ابن رشيد أو ربما زامل بن سبهان فقد كانا أداة إزعاج لابن سعود غير أنهما لبعض الأسباب لم يحركا ساكناً، أما مبارك الصباح كزعيم للقومية العربية فقد كان شخصاً غير مرغوب فيه البتة.

ولم يكن ابن سعود مغمضاً عينيه عما يدور حوله، لكنه بصورة متعمدة تجاهل كل وخزات العدو الذي كان لا يهاجمه بجدية؛ لذلك فقد خرج عبدالعزيز لقضاء معسكر الربيع عند روضات الخفس في شهر فبراير وذلك بهدف رعى إبله وخيله في المروج الخضر القريبة مع استمرار غاراته على قبائل مطير والعجمان في الصحراء المجاورة. ولم يكن هناك ما يشي بأنه كان يريد تنفيذ عملية عسكرية غير عادية. غير أنه بحلول شهر مايو وصل عند مغيب الشمس بقوة كبيرة قوامها ٦٠٠ رجل حيث نزل عند بعض الآبار على بعد أميال قليلة من الهفوف. واستطاع بواسطة بعض أصدقائه أن يحصل على كل المعلومات التي كان يطلبها عن دفاعات قلعة المدينة والمدافعين عنها، وعندما أرخى الليل سدوله استطاع بواسطة سلالم صنعت من جذوع النخيل أن يتسلق أسوار قلعة الكوت بثلاثة جوانب، وتم اغتيال الخفراء وهرب بقية أفراد حامية المدينة باتجاه مسجدها الكبير تاركين القلعة للغزاة الذين نادوا على أهل المدينة المذهولين للاستسلام.

وأوفد عبدالعزيز رسولاً لحاكم المدينة المحلي وقائد حاميتها العسكرية مطالباً إياهم بإعلان الاستسلام حيث سيسمح لهم في حالة الموافقة على ذلك المغادرة سلمياً باتجاه الساحل. وفي حالة رفض هذا العرض سوف تهاجم المدينة

مرة أخرى، كما وأن النفق الذي حفر تحت المسجد سوف يتم تفجيره. وأخيراً تمت الموافقة على شروط ابن سعود وغادرت الحامية التركية في ٥ مايو ١٩١٣م الأحساء باتجاه الساحل يرافقها ابن عمه أحمد بن ثنيان للتأكد من أن أفراد الحامية قد غادروا المنطقة دون أن تتحرش بهم القبائل العربية في الطريق.

وفي خطوة تالية استسلمت حامية العقير لأحمد بن ثنيان الذي لم يضيع الوقت سدىً وأشرف بسرعة على ترحيل بعض القوات التركية بواسطة قوارب إلى البحرين، أما بقية جنود الحامية التركية فقد تم ترحيلهم بباخرة بريطانية تسمى "جون أسكوت". وكان هناك البمباشي نورس بك الذي أرسل من البصرة للإشراف على إخلاء حامية العقير، بيد أنه وجد أن الجنود لم يكونوا راغبين في العودة معه بسبب خيبة الأمل التي لحقت بهم. وفي هذا الأثناء أرسلت حملة عسكرية لإنقاذ القطيف من الجيوش الوهابية لكنها وجدت أن المدينة قد سقطت في يد عبدالرحمن بن سويلم الذي نصب نفسه حاكماً عليها؛ لذلك فقد عاد أفراد الحامية التركية مرة أخرى إلى البحرين حيث تم تعيين القائمقام عبدالجبار بك قائداً لها. وفي السادس والعشرين من مارس أرسل نورس بك بقوة عسكرية لإعادة احتلال العقير.

وباقتراب القوات الوهابية فإن معظم الجنود الأتراك اعتلوا المراكب تاركين ٦٠ رجلاً وضابطاً في القلعة التي سرعان ما أعلنت استسلامها لابن سعود الذي وصل بنفسه إلى العقير، وتم تجريد القوة العسكرية التركية من سلاحها وأرسلت بالمراكب إلى البحرين التي وصلتها في ٣٠ مايو ١٩١٣م، وهكذا وفي أقل من شهر استطاع ابن سعود أن يجلي القوات التركية نهائياً من إقليم

الأحساء إلى الأبد . ويبدو أن مما فعله ابن سعود كان ضربة لازب، سيما وأن البريطانيين وبعد ثمانية عشر شهراً لاحقة قد احتلوا كل الإقليم استكمالاً لسيطرتهم على الساحل العربي المطل على الخليج الفارسي .